مقالات منحولة

كثيراً ما تدعو الدواعى كاتباً من الكتاب إلى إنشاء مقال لا يذيله باسمه ؛ ويكاد يكون من الشائع المألوف أن يقرأ القراء مقالاً فى صحيفة من الصحف غير معزوّ إلى قائله أو مرموزاً إليه رمزاً ما ! ولكن من غير المألوف أن ينشئ كاتب من الكتاب مقالة أو فصلاً من كتاب ، أو كتاباً بتمامه ، ثم ينسب ما ينشئه إلى كاتب غيره ، وللرافعى فى تاريخه الأدبى حوادث من مثل ذلك ؛ فثمة مقالات ورسائل ، وكتب متداولة مشهورة ، يعرفها القراء لغير الرافعى ، وهى هى من إنشائه وكدّ فكره وعصارة قلمه ، ولكنه آثر بها غيره زهداً عنها أو التماساً للنفع من ورائها ، ولو أنى أردت أن أستقصى ما أعرف من ذلك لأغضبت كثيراً من الأحياء أحرص على رضاهم وأخشى غضبهم ؛ ولقد كنت على أن أطوى هذا الفصل حرصاً على مودتهم ، ولكنى وقد وضعت نفسى بهذا الموضع لأكون مؤرخاً بعيداً عن التهمة — لم تطب نفسى بكتمان الشهادة ، فإذا لم يكن بوسعى أن أذكر كل ما أعرف ، فحسبى اللمحة الدالة والإشارة الموجزة ، ومعذرة إلى أصدقائى ...

* * *

فى سنة ١٩١١ أصدر الرافعى كتاب تاريخ آداب العرب فتقبله الأدباء بقبول حسن ؛ وكتبت عنه المقالات الضافية فى كبريات الصحف ، ولكن ذلك لم يكف الرافعى ؛ ففى ذات يوم قصد إلى جريدة «المؤيد» ، فلقى هناك صديقه المرحوم أحمد زكى باشا ، فأهدى إليه كتابه ورجاه أن يكتب فصلاً عنه ؛ فقال زكى باشا : «وماذا تريدنى أن أكتب ؟ » قال الرافعى : « تقول وتقول ... » قال زكى باشا : « فاكتب ما تشاء وهذا إمضائى ... ! » وجلس الرافعى إلى مكتب فى دار الجريدة

فكتب ما شاء أن ينسب إلى صديقه فى تقريظ كتابه ، ثم دفعه إليه فذيله باسمه ودفعه إلى عامل المطبعة ...

وقرأ الناس فى اليوم التالى مقالاً ضافياً بإمضاء « أحمد زكى باشا » فى تقريظ « تاريخ آداب العرب » تَشغَل الصفحةَ الأولى كلها من الجريدة . ولكن أحداً من القراء لم يعرف أن كاتب هذا المقال هو الرافعى نفسه ، يثنى على كتابه ويطرى نفسه !

ولهذه الحادثة أخوات مع زكى باشا نفسه ؛ فإنه لما أنشأ الرافعى نشيده « اسلمى يا مصر ... » قرأ القراء مقالاً فى الأخبار بإمضاء أحمد زكى باشا ، يثنى على النشيد ويطرى مؤلفه ، ولم يكن كاتب هذا المقال أحداً غير الرافعى ؛ بل إن أكثر المقالات التى يراها القراء فى الكتيب الصغير الذى نشره الرافعى عن نشيده هذا [1] هو من إنشائه أو من إملائه !

وقد ظل هذا (التعاون) وثيقاً بين المرحومين زكى باشا والرافعى إلى أخريات أيامهما ؛ ومنه أن زكى باشا كان على نية إعداد معجم لغوى كبير قبيل وفاته ، وكان للرافعى فى إنشاء هذا المعجم أثر ذو بال ، وفيه فصول ألفها الرافعى بتمامها وأعدها للامضاء ... ولكن المنية أعجلت المرحوم أحمد زكى باشا عن إصدار هذا المعجم ، وأحسبه ما يزال محفوظاً بين مخلفاته المخطوطة .

* * *

ويتصل بسبب إلى هذه المقالات التى كان ينحلها الرافعى صديقَه زكى باشا ، ما نحل أخاه المرحوم محمد كامل الرافعى من شرح ديوانه الذى أصدر منه ثلاثة أجزاء ١٩٠٣ — ١٩٠٥ ؛ فإن شارحها هو الرافعى نفسه ، وفيها عليه ثناء وإطراء .

* * *

فى الحادثتين السابقتين إشارة إلى بعض الأسباب التى كانت تحمل الرافعى على أن ينحل أصدقاءه بعض ما يكتبه ؛ وهنالك أسباب أخرى :

---

(١) نشيد سعد باشا زغلول — المطبعة السلفية

فى سنة ١٩١٧ وقعت فى طنطا جريمة قتل مروّعة ؛ وكانت القتيل امرأة عجوزاً مسموعة بالغنى والشح والكزازة ، تزوّجها قُبيل مقتلها شاب من الشباب العابثين طمعاً فى مالها ، فلم يلبث معها إلا قليلاً ثم وقعت الجريمة !

وتوجهت التهمة أول ما توجهت إلى زوجها الشاب ، ثم انصرفت عنه إلى أختها وزوج أختها فسيقا إلى قفص الاتهام ، وكانا شيخين عجوزين، فيهما بلاهة وغفلة، فلم يستطيعا الدفاع عن نفسيهما ، وهيّئا بغفلتهما وبلاهتهما الفرصة للمجرم الحقيقى أن يحوك حولهما الشبكة وأن يصوب عليهما أدلة الاتهام لينجو هو من العقوبة ...

كان المجرم الحقيقى معروفاً للجميع ، ولكن المحكمة بما اجتمع لديها من براهين مصنوعة لم تجد أمامها غير هذين البريئين المغفلين فألقت بهما إلى السجن المؤبد ؛ وقضيا فى السجن بضع سنين !

شيخان على أبواب الأبدية ، يساقان إلى ظلام السجن ليس من ورائه إلا ظلام القبر ، ولم يقترفا جريمة أو يرتكبا إثماً ... ولكن القانون قد قال كلمته ، والقانون حق واجب الاحترام ؛ فلم تبق إلا الرحمة الإنسانية شفيعاً من قسوة القانون ...

وسعت أسرة السجينين إلى المحامى الأديب الأستاذ حافظ ... تطلب إليه أن يكتب استرحاماً فى أمرهما إلى أمير البلاد ، لعل فى عطفه ما يأسو الجرح ويخفف وقع المصاب ، وجعلت له أجراً على ذلك مائة جنيه !

وماذا يقول المحامى فى قضية فرغت المحكمة من أمرها وقال القضاء كلمته ؟

ليس هذا سبيل المحامى الذى يرتّب القضايا ويستنبط النتائج ويستنطق الصامت ويستوضح الغامض ؛ لقد فات أوان ذلك كله فلم تبق إلا كلمة الشاعر الذى يخاطب النفس الإنسانية فيجتلب الرحمة ويستدر العبرة ويحسن الاعتذار عن البشرية من أخطائها فيذكى العاطفة الخابية ويوقظ الإحساس الراقد ويتحدث إلى القلب الإنسانى حديث الوجدان والشعر والعاطفة ...

وقصد الأستاذ حافظ إلى صديقه المرحوم الرافعى ، ليضع القضية بين يديه ويسأله أن يكتب الاسترحام إلى أمير البلاد ، وسمى له أجرة إن توفق فى مسعاه .

وقرأ الرافعى القضية وأحاط بها من كافة نواحيها ، ثم شرع قلمه وكتب ... وبلغت صيحتُه حيث أراد فأفرج عن السجينين فى مايو سنة ١٩٢١

وتناول الرافعى أجرته على ذلك من المحامى سبعة عشر جنيهاً ، واستبقى المحامى لنفسه ثلاثة وثمانين ..

فى هذا الاسترحام الذى كتبه الرافعى فى بضع وأربعين صفحة ونحله صديقه المحامى ليطبعه باسمه ، لون من أدب الرافعى غير معروف لقرائه ؛ فيه تحليل نفسى بديع ، وفيه شعر إنسانى يبلغ الغاية من السموّ ، وفيه منطق واستنباط وملاحظة دقيقة لا تجد مثلها فى أساليب الأدباء .

وقد ظل هذا (التعاون) الأدبى متصلاً بين الرافعى وصديقه الأستاذ حافظ إلى ما قبل موت الرافعى ؛ ولكن هذا (التعاون) قد خرج من نطاق القضايا والمحاكمات إلى نطاق أدبى آخر ليس من حق أن أتحدث عنه اليوم[1] . . . وعند الأستاذ الزيات بقية الخبر ، تحدث به الرافعى إليه فى مجلس ضمنا نحن الثلاثة ...

* * *

وفى شهر ديسمبر من سنة ما ، قصد الأستاذ جورج إبراهيم إلى صديقه الرافعى ، يطلب إليه أن يعد كلمة عن المسيح لتلقيها فتاة مسيحية فى حفلة مدرسية فى ليلة عيد الميلاد ...

وكتب الرافعى المسلم كلمة مسلمة فى تمجيد المسيح فدفعها إلى صديقه . وألقتها الفتاة فى حفل حاشد من المسيحيين المثقفين فخلبت ألبابهم واستحقت منهم أبلغ الاعجاب .

وفى الشهر التالى كانت هذه الخطبة المسيحية الرافعية منشورة فى « المقتطف » منسوبة إلى الفتاة . وكانت عند أكثر القراء المسيحيين إنجيلاً من الإنجيل .

تحت يدى الآن النسخة الأصلية من هذه الخطبة مكتوبة بخط الرافعى ، وهى النسخة التى بعث بها إلى صديقه الأستاذ جورج ليدفعها إلى الفتاة ؛ وفى صدرها

(١) حدثنى حديث هذه القضية الأستاذ الأديب جورج إبراهيم ، صديق الرافعى وملازمه من لدن نشأته

بخطه إلى صديقه : « هذا ما تيسر لى على شرط الفتاة ، فنقح فيه ما شئت ، واضبط لها الكلام . والسلام »

وفى آخرها يتفكه مع صديقه (« وعلى الأرض السلام ، وفى الناس المسرة » والمضرة . والمعرة ياعم جورجى) .

* * *

وكان الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى — صهر الرافعى — من تلاميذ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده المقربين ، وكان أدنى منزلةً إليه من كثير من تلاميذه ، على أن تأثره به كان من الناحية الأدبية وحسب ، على حين كان تلميذه المقرب المرحوم السيد رشيد رضا مخصوصاً بالرواية عنه فى الناحية الدينية ، فكلاهما من تلامذة الأستاذ الإمام ولكن لكل منهما نهجه وشرعته .

فلما هم الأستاذ البرقوقى أن يصدر مجلة البيان[1] — وكان السيد رشيد رضا قد سبقه بإصدار مجلة المنار — قصد البرقوقى إلى الرافعى يقول له : « إننى لا أتصوَّر كيف يصدر العدد الأول من (البيان) وليس فيه كلمة أو حديث أو مجلس من مجالس المرحوم الأستاذ الإمام ، وأنا كنت أدنى إليه مجلساً من رشيد رضا الذى لا يكاد يصدر عدد من مجلته — المنار — إلا وفيه حديث أو خبر أو مجلس من مجالس الشيخ محمد عبده ! » .

قال الرافعى : « فابدأ العدد ~~العدد~~ الأول بما شئت من حديثه أو مجالس درسه ! »

قال البرقوقى : « ولكنى لا أجد عندى ما أرويه عن الإمام ؛ لقد ترك الشيخ فى نفسى أثره ولكنه لم يترك فى ذاكرتى من حديثه ومجالسه شيئاً يستحق الرواية ! »

قال الرافعى : « ... ولا بد من ذكر شىء عنه فى البيان ؟ »

قال : « بلى ، وإلا غلبنى رشيد رضا واستطال علىّ عند قرائه بأنه هو وحده تلميذ الإمام وراويه ! »

وضحك الرافعى وأطرق هنيهة ، ثم تناول قلما وورقة وكتب ...

---

(١) مجلة البيان : هى مجلة أدبية كان لها فى حلبة الأدب صولة وسلطان ، وهى غير البيان التى كان يصدرها المرحوم إبراهيم اليازجى .

وصدر العدد الأول من مجلة البيان ، وفيه حديث يرويه البرقوقى عن الشيخ محمد عبده فى مجلس من مجالس درسه ؛ بأسلوب من أسلوبه وروح من روحه وبيان فى مثل بيانه ؛ وما قال المرحوم الإمام شيئاً من ذلك ولا تحدث به ، ولكنه حديث مصنوع وضعه الرافعى على لسان الأستاذ الإمام ونشره البرقوقى ليقضى لبانة فى نفسه ...

... ألقى إلىّ الرافعى هذا الحديث ساخراً ، ثم دفع إلىّ العدد الأول من مجلة البيان وهو يقول : « اقرأ ؛ أترى هذا الحديث من مهارة السبك بحيث يجوز على القراء أنه من حديث الأستاذ الإمام ؟ »

وضحكْتُ وضحك الرافعى وعاد يقول : « ولكن تمام الفكاهة أن السيد رشيد رضا لما قرأ هذا الحديث المصنوع ، التفت إلى جلسائه قائلاً : وأى حديث هذا الذى يبدأ به البرقوقى مجلته ؟ لقد كنت حاضراً مجلس الشيخ ، وسمعت منه هذا الحديث ، ولكنى لم أجد له من القيمة الأدبية ما يحملنى على روايته ...[1] ! »

... واستمرّ هذا (التعاون) أيضاً بين الرافعى والبرقوقى طول المدة التى كانت تصدر فيها مجلة البيان ، فأىّ مقال قرأت من أعداد هذه المجلة فشككت فى نسبته إلى مُذيِّله باسمه ، فاحمله على أنه مما كتب الرافعى من الأدب المنحول ...

ومن ذلك مقدمة شرح ديوان المتنبى الذى وضعه الأستاذ فلان !

ويدخل فى هذا الباب كثير من المقالات كان الرافعى يكتبها بأسماء طائفة من ناشئة المتأدبين ؛ ليدفع عن نفسه فى معركة ، أو يدعو إلى نفسه لمغنم ، أو ليعين صاحباً على العيش ، أو ليوحى إلى (صاحب الإمضاء) إيحاء يدفعه إلى الاستمرار فى الأدب والأملِ فى أن يكون غداً من الكتّاب المشهورين ... وليس يعنينى فى هذه الناحية أن أسمّى أحداً أو أشير إليه ، إذ كان الذى كتبه من ذلك ليس له من القيمة الأدبية ما يدعونا إلى الحرص على تصحيح نسبه ، وأكثره لغو مما يُنشر فى بعض الصحف لملء الفراغ .

---

(١) أروى هذا الخبر عن الرافعى على علاته؛ على أن صديقنا الأستاذ محمود أبو رية ينكره، وقد نفى المرحوم السيد رشيد رضا نسبة هذا الحديث إلى الأستاذ الامام فى بعض كتبه ؛ أفتراه تنبه لها من بعد ؟